الفصل السادس

الوقف والمنشآت الأخرى

يشتمل هذا الفصل على باقي أنواع المنشآت الوظيفية التي ازدهرت عمارتها بفعل الوقف؛ ومن أهمها المباني السكنية، ومؤسسات الرعاية الاجتماعية، والمنشآت التجارية، والصناعية، والعسكرية.

ومن خلال الدراسة نجد أنه وكما كان للوقف دوره المؤثر والفاعل في ازدهار عمران المباني الدينية والتعليمية والثقافية والطبية، فقد لعب نفس الدور في ازدهار عمران باقي أنواع المباني والمنشآت التي ارتبطت بوظائف أخرى تؤديها في المدينة الإسلامية، وذلك من خلال المساهمة في كثرة عمران هذه النوعية من المنشآت أو المساهمة في استمرار أدائها لوظيفتها من خلال الصرف على عمارتها وصيانتها وعلى القائمين عليها سواء كان الناظر أو المتولي أو الموظفين فيها. أضف إلى ذلك ظهور الدور الاجتماعي والاقتصادي والعسكري للوقف من خلال النهضة العمرانية لأنواع المنشآت التي خدمت هذه الأغراض.

(٦,١) المباني السكنية

يعد توفير المسكن من الحاجات الضرورية للإنسان، فهو يأتي في المرتبة الثالثة بعد المأكل والملبس. وقد عبر الإنسان منذ نزوله إلى الأرض عن هذه الرغبة عندما اتجه

في بادئ الأمر إلى الكهوف والمغارات في الجبال كي يتخذها مأوى له، قبل أن يتمكن من تشييد الكوخ الذي يعد أول منشأة معمارية شيدها الإنسان في التاريخ.

ومع تطور الحضارات نجد أنه كان للمباني السكنية النصيب الأكبر منها، وعلى هذا الحال كانت عمارة المنشآت السكنية في المدينة الإسلامية، فلا شك في ازدهار العمران السكني وتمدد أحياء المدينة وقطاعاتها المختلفة بفعل التطور العمراني للمباني السكنية، سواء كانت المساكن الخاصة أو المؤجرة، أو الخانات ومباني الفنادق ودور الضيافة أو مساكن الطلاب، أو حتى المساكن التي كانت تشيد من أجل سكنى الفقراء، والتي كان للوقف فيها جميعاً دوره الفاعل والمؤثر.

(٦,١,١) المساكن والدور الخاصة

مما سبق بيانه في الفصل الأول من أنه قد أجيز في الفقه الإسلامي الوقف الذري أو الأهلي، كما أجيز الوقف على النفس، بأن يقف الشخص على نفسه وذريته من بعده. فقد اتجه الواقفون نحو وقف مساكنهم الخاصة على أنفسهم وذرياتهم من بعدهم.

وقد أخذ وقف المساكن والدور الخاصة نهجين، فمن المساكن ما أوقفه الواقف على نفسه وذريته من بعده، ومنهم من أوقف الدور على مباني أخرى موقوفة مثل المساجد والمدارس والبيمارستانات والمكتبات.

ومن الأمثلة على المساكن الخاصة الموقوفة، قصر بشتاك وهو من أعظم مباني القاهرة في ذلك الوقت، وكان في وقف السلطان الملك الناصر حسن بن محمد قلاوون، وقصر الحجازية، وهو من جملة أوقاف كانت موقوفة على المدرسة الحجازية[1]. ومن الأمثلة أيضاً، على هذا النوع من الأوقاف كان منزل جمال الدين الذهبي الذي أنشئ سنة ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م، (الشكل رقم ٦,١). وقد ذكرت وثيقة المنزل، أن ملكية المنزل لفاطمة خاتون ابنة جمال الدين الذهبي شاه بندر التجار بمصر، وهي التي أوقفت هذا المنزل على نفسها "أبداً ما عاشت ودايماً ما بقيت، ثم

---

(١)محمد محمد أمين، *الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية*، مرجع سابق، ص٣٤٦.

على عتقائها ذكوراً وإناثاً وأولادهم، وأولاد أولادهم ونسلهم وعقبهم بعد ذلك"[٢].

ويعد المنزل من أهم آثار العمارة الإسلامية في مصر لما احتواه من فن معماري، وتنسيق فراغي، وجماليات تشكيلية في كافة عناصر المنزل. ورغم عدم انتظام قطعة الأرض المبني عليها المنزل، إلا أن المصمم نجح في وضع التنظيمات الفراغية حول الفناء الداخلي المكشوف، ومن خلال مدخلين للمنزل، حيث نظمت العناصر الخاصة بأهل المنزل وتلك التي كانت عامة للضيوف[٣].

أما عن المساكن والدور التي كانت توقف على مباني موقوفة فهي كثيرة، وكان يستفاد من ريعها في الصرف على الوقف، ومن ذلك ما أوقفه أحمد بن طولون على البيمارستان الذي شيده بالفسطاط، فقد أوقف عليه دار الديوان ودوره في الأساكفة، بجانب القيسارية وسوق الرقيق[٤].

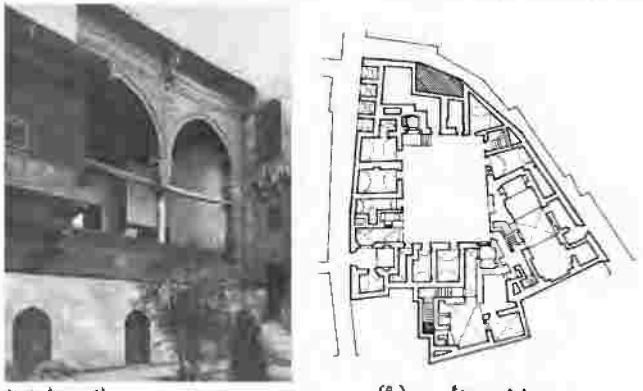

الطابق الأرضي[٥] الفناء الداخلي[٦]

الشكل رقم (٦,١). منزل جمال الدين الذهبي بالقاهرة.

---

(٢) رفعت موسى محمد، *الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية*، مرجع سابق، ص ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٣) J. D.,Hoag, *Islamic Architecture*, (op. cit.), pp. 178, 183

(٤) فريد شافعي، *العمارة العربية في مصر الإسلامية*، المجلد الأول، عصر الولاة، مرجع سابق، ص ٥١٠.

(٥) J. D.,Hoag, Islamic Architecture, (op. cit.), p.181

(٦) Ibid, p.180.

(٦,١,٢) الخانات ودور الضيافة والفنادق

شملت الأوقاف في عصور الدولة الإسلامية الخانات[٧] والفنادق ودور الضيافة، وقد كانت تبنى للمسافرين والمحتاجين، كما أنشئت المواثل والخانات لإيواء المسافرين من فقرائهم أو تجّارهم في حلهم وترحالهم من منطقة لأخرى، كل ذلك مجاناً اعتماداً على ما أوقف من وقوف على مثل هذه الخدمات. ومن النماذج التاريخية الفاعلة بيوت للحجاج في مكة ينزلون فيها حين يفدون إلى بيت الله الحرام، وقد كثرت هذه البيوت حتى عمت أرض مكة كلها، مما دفع بعض العلماء للإفتاء ببطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحج، لأنها كانت كلها موقوفة على الحجاج. كما بنى الخليفة معاوية بن أبي سفيان داراً بمكة يقال لها دار المراجل، كان بناها للمنفعة العامة، ولكي يتم طبخ الطعام للحجاج والصائمين في رمضان والفقراء[٨].

كما بنيت الخانات في الأصل على الطريق للمسافرين يستخدمها المسافر مع وسيلة انتقاله للاستراحة والمبيت، أي أنها تمثل ما يعرف باسم الموتيل. وقد أقيمت هذه المباني على هيئة قلاع أو حصون نظراً لوقوعها خارج المدن وتعرضها لغارات اللصوص[٩]. وهناك فروق جوهرية بين الخانات والوكالات؛ فالوكالات كانت تقام وسط المدن، وتقدم خدماتها بأجر بوصفها أماكن تجارية، بينما خانات القوافل كانت مبنية في طريق الصحراء أو بين المدن بوصفها محاطّاً لتوقف القوافل، وهي تقدم خدماتها بلا مقابل، غير أن الفروق بين هذين النوعين من المباني التجارية لا يتوقف

---

(٧) كلمة خان كلمة فارسية بمعنى فندق.

(٨)عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز الباحوث، *الوقف والتنمية الاقتصادية*، مرجع سابق، ص ص ١٤٨-١٤٩.

(٩)صالح لمعي مصطفى، *التراث المعماري الإسلامي في مصر*، مرجع سابق، ص ٧٢.

عند هذا الحد، بل يتعداه إلى اختلافات كبيرة في تصميم البناء وفي زخرفته[١٠]. ولأن مباني الخانات كانت تقدم خدماتها بالمجان، فلا عجب في أن تكثر الأوقاف عليها.

وكانت أغلب الخانات تدار بأموال الوقف، وكانت تستخدم في سكنى الغرباء والطلاب خاصة، وتقابل المسجد أو المدرسة في بعض الأحيان. فقد أوقف تاجر ميسور اسمه دعلج السجستاني سنة ٣٥١هـ، خاناً لطلبة العلم الشافعية استمر حتى ٥٢١هـ/١١٢٧م، وكان يقيم في الخان ما بين ١٠- ٢٠ طالباً[١١].

"وينسب إلى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز أنه أمر بعمارة الخانات على طريق الحاج في خراسان شرق الدولة الإسلامية، حيث كتب إلى سليمان بن أبي السري أن اعمل الخانات في بلادك، فمن مر بك من المسلمين فأقروهم يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً فأقروه بما يصل إلى بلده"[١٢].

كما أوقفت السيدة أم قاسم المرادية في المغرب ثروتها لبناء محطات التزود بالزاد والماء والاستراحة للحجيج ولدوابهم، حيث وجد أنه في كل بلد من مدينة آسفي إلى مكة المكرمة دار من طبقتين؛ طابق لاستراحة الحجاج وتزويدهم بالأكل والدواء، وطابق للدواب لأكلها واستراحتها ودوائها كما يتم استبدال الدواب وتعويض ما مات منها. وقد تم تشييد هذه الفنادق على بعد كل ٥٠ كيلومتراً عبر الطريق التالي: المغرب (آسفي – فاء – وجدة)، الجزائر (عبر تلمسان – وهران العاصمة قسطنطينية)، تونس

---

(١٠)عماد جعفر ساجواني، "تأثير المنهج الإسلامي على الطابع والشخصية في تخطيط المدينة"، *أبحاث الحلقة الدراسية الرابعة، "المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري"*، جدة: منظمة المدن والعواصم العربية ١٩٩١م، ص٤٣.

(١١)سامي محمد الصلاحات، *دور الوقف في مجال التعليم والثقافة في المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة، دولة ماليزيا المسلمة نموذجاً*، مرجع سابق، ص٣.

(١٢)عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز الباحوث، *الوقف والتنمية الاقتصادية*، مرجع سابق، ص ١٤٨.

(القيروان)، ليبيا (طرابلس – بنغازي)، مصر (الإسكندرية – الفسطاط – العريش)، فلسطين (غزة – القدس)، سوريا (اليرموك)، الجزيرة العربية (المدينة المنورة – مكة المكرمة)[١٣].

وأوضح نموذج على الخانات من الأناضول هو خان سلطان بقرب آق سراي الذي بناه السلطان علاء الدين كيقباذ الأول عام (١٢٢٩ – ١٢٣٠م). ويتألف من صحن خارجي وبه حظيرة للدواب، ومن حانوت حداد يعنى بالركائب، وفي الداخل قاعة تقي المجتمعين زمهرير البرد، أما مدخل البوابتين الخارجية والداخلية فقد نقش نقشاً بديعاً مرصعاً بالرخام. وتشهد الفخامة التي يلاحظها الزائر للمبنى كله داخله وخارجه بسخاء منشئ الخان[١٤].

وهناك وثيقة وقف أحد الخانات مسجلة باسم الأمير السلجوقي قازاتاي في أنطاليا عام ١٢٥١م، وتنص على تقديم الطعام وتيسير المبيت للمسافرين بلا أجر، ومنحهم ما يحتاجون إليه من خدمات أخرى مثل إصلاح أحذيتهم والعناية بدوابهم، بل وتقديم هدايا من السكر في أيام الأعياد. وقد كان بالخان مستشفى وحمام ومسجد، وعدد كبير من الموظفين لخدمة هذه المرافق، كما كانت به هيئة دائمة من البناءين المكلفين بإصلاح المبنى وصيانته والسهر على خدمة المسافرين[١٥].

كما أوقف عارف حكمت مجموعة من الأوقاف على مكتبته في المدينة المنورة، وكان من بينها خان، وورد في نص وثيقة الوقف "ووقفت الخان الذي اشتمل على أربع غرف وواحد إسطبل كبير وواحد دكان البقالة، وواحد دكان الحلاقة"[١٦].

---

(١٣)خديجة مفيد، *المرأة والوقف – التجربة المغربية*، مرجع سابق، ص ١٦٦.

(١٤)عماد جعفر ساجواني، *تأثير المنهج الإسلامي على الطابع والشخصية في تخطيط المدينة*، مرجع سابق، ص٤٢.

(١٥) المرجع السابق، ص٤٢.

(١٦)يحيى محمود ساعاتي، *الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي*، مرجع سابق، ص ٥٤.

وأوقف الميراج خان المرجان على مدرسته المسماة بنفس الاسم في مدينة بغداد، (الشكل رقم ٦,٢)، والخان مبني من الطوب، ويحتوي على صالة كبيرة وذات ارتفاع عالٍ ١٤م ومغطاة بالقبوات، تطل عليها الغرف من الجانبين ومضاءة بالإضاءة الطبيعية من فرق المنسوب في الحوائط الجانبية، وتعد إضاءة هذا الخان بهذا الشكل من المميزات الفريدة في العمارة الإسلامية[١٧].

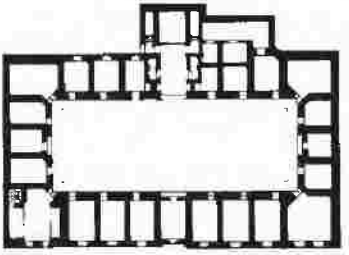

منظور داخلي في الخان — مسقط أفقي للخان

الشكل رقم (٦,٢)، خان المرجان، بغداد[١٨].

وقد ذكر المقريزي أنه في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي كان بالقاهرة أحد عشر خاناً[١٩]. وكان من أشهرها خان الزراكشة الذي يعد من الخانات المهمة في مدينة القاهرة، ومازال جزء كبير منه باقياً إلى الآن، وقد تمت عمارته الآن بعد عملية الترميم التي تمت له في العصر الحديث. وهناك خلاف حول منشئ الخان، هل هو من أوقاف الغوري أم من عهد قايتباي؟ وتطل واجهة المبنى على شارع الأزهر، (الشكل رقم ٦,٣)، ومن الخلف تكية أبو الدهب، ومن أحد جوانبه جامع أبو الدهب، ومساكن حديثة من الجانب الآخر[٢٠].

---

(١٧) G. Michell, Architecture of the Islamic World, (op. cit.), p.248

(١٨) Ibid, p.248.

(١٩) صالح لمعي مصطفى، *التراث المعماري الإسلامي في مصر*، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٢٠) وزارة الثقافة، *خان الزراكشة*، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ١٥.

كما اشتمل مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز بإيران على دار للضيافة أوقفها رشيد الدين فضل الله الهمداني، وقد أعدت هذه الدار لاستقبال موظفي الربع الرشيدي والمسافرين والضيوف، وتشتمل على مبنى ضخم من طابقين؛ الجانب الأيمن مصمم على شكل غرف لسكان المجمع الرشيدي مثل المدرسين، والمعلمين، والموظفين، والخدم، وخاصة طلبة العلوم المختلفة، وكان يقدم لهم وجبة واحدة على الأقل كل يوم وهي وجبة الإفطار[٢١].

الشكل رقم (٦,٣). واجهة خان الزراكشة (بعد الترميم)[٢٢].

(٦,١,٣) مساكن الفقراء

إذا كان الأغنياء يوقفون منازلهم على أنفسهم وعلى ذريتهم من بعدهم، ومنهم من أوقف الدار لتؤجر ويستفاد من ريعها في الصرف على أوقاف أخرى؛ فإنه

---

(٢١) حسين اميديان، *مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسية رائدة في الوقف*، مرجع سابق، ص ص ٥٥- ٥٦.

(٢٢) وزارة الثقافة، *خان الزراكشة*، مرجع سابق، ص ١٥.

كانت هناك أوقاف سكنية خاصة بالفقراء مباشرة، فقد كان من الأوقاف بيوتاً خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر داراً[٢٣].

كما أوقف رشيد الدين فضل الله الهمداني في مدينة تبريز داراً للمساكين كانت تصل ما بين المجمع الرشيدي والمدينة الرشيدية، وكانت تستقبل فقراء المسلمين، وتقدم لهم الطعام، وكان يصل عدد الوجبات في الوجبة الواحدة إلى مئة وجبة[٢٤].

(٦,١,٤) الربوع

الربوع عبارة عن مساكن تبنى بغرض وقفها وتؤجر ويستفاد من أجرتها في أوقاف أخرى، وهي تمثل في حد ذاتها وعاءً استثمارياً للوقف. والربع الواحد عبارة عن مجموعة من المساكن تجمع حول صحن، ويكون له في الغالب مدخل واحد وسلم واحد، ويصل ارتفاعه إلى أربعة أو خمسة طوابق، ويتم الوصول إلى المساكن عن طريق طرقة تدور حول الصحن، بينما توجد مجموعة من الحوانيت بالجهة المطلة على الشارع[٢٥]. وكانت بعض الربوع تتكون من مجموعة من الحجرات، تسكن عائلة واحدة في حجرة منها أو أكثر[٢٦].

لم يكن هذا النوع من المساكن له فوائد مباشرة للواقفين، حيث كان الواقف يقيم هذه المساكن ويؤجرها ويستفيد من دخلها لصالح العين التي تخدم الوقف، سواء كانت مستشفى أو مدرسة أو غير ذلك.

---

(٢٣)مصطفى السباعي، *من روائع حضارتنا*، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٢٤)حسين اميدياني، *مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسية رائدة في الوقف*، مرجع سابق، ص٥٦.

(٢٥)صالح لمعي مصطفى، *التراث المعماري الإسلامي في مصر*، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٢٦)فريد شافعي، *العمارة العربية في مصر الإسلامية*، الجزء الأول عصر الولاة، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

وقد دلت وثيقة وقف السلطان فرج بن برقوق على نمط آخر من مباني الربع، بمدينة القاهرة، حيث إنه ألحق بمسجده ربعاً خصص ريعه للصرف على المسجد. والربع عبارة عن عمارة سكنية مكونة من أربعة طوابق، بالطابق الأرضي محلات تجارية، والطوابق الثلاثة العليا يحتوي كل منها على ثلاثة مساكن منفصلة تطل على الطريق، ويخدم عليها من الجهة الأخرى طرقة بنهايتها دورة مياه، ويخدم على المبنى سلم واحد، والفتحات المطلة على الشارع مغطاة بالمشربيات[٢٧]. ووقف عارف حكمت على مكتبته بالمدينة المنورة، مجموعة من المنازل في نفس المدينة؛ منها دار في مواجهة التاجوري كانت مؤجرة بمائة ريال، وأخرى بباب، ودار في زقاق الطيار، ودار في حوش التكارنة وأخرى في زقاق القشاش وقد هدمتا[٢٨].

(٦,١,٥) مساكن الطلبة

لم توجد مدرسة موقوفة إلا وكان يوجد فيها أو بجوارها بيتاً خاصاً للطلاب المغتربين[٢٩]، ويجري عليهم ما يحتاجون إليه من غذاء، مما ساعد على طلب العلم. وقد استرعت هذه الظاهرة نظر الرحالة ابن جبير حيث كتب يقول: "إن هذه الظاهرة ملموسة على نطاق واسع في بلاد المشرق عامة، وفي مصر خاصة، وأن هؤلاء الغرباء كانوا موضع رعاية الحكام الذين وقفوا الأوقاف الواسعة على المرافق التي خصصوها لهم"[٣٠].

---

(٢٧)صالح لمعي مصطفى، *التراث المعماري الإسلامي في مصر*، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٢٨)يحيى محمود ساعاتي، *الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي*، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٢٩) لعل هذا ما جعل هناك خلط ما بين المدرسة والخانقاة (محمد محمد أمين، *الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية*، مرجع سابق، ص٢٥٣).

(٣٠)عبد الله بن سليمان الباحوث، *الوقف والتنمية الاقتصادية*، مرجع سابق، ص ١٥٠.

فقد اشتهرت المدارس المملوكية، بشكل خاص، بجودة مساكنها وتنافس الطلاب على سكناها، ومن الأمثلة على ذلك المدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس بالقاهرة عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، وكان "للناس في سكناها رغبة عظيمة ويتنافسون فيها تنافساً يرتفعون فيه إلى الحكام"، وكذلك كانت المدرسة الصاحبية التي أسسها الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٥م، فكان يتنافس طلبة العلم على النزول بها ويتشاحنون في سكنى بيوتها حتى أنه كان يسكن البيت الواحد من بيوتها اثنان وثلاثة من طلبة العلم(٣١).

كما بلغ الحد بالاهتمام بمساكن الطلاب أن أنشئت في بعض المدن الإسلامية مدناً جامعية، كما في الأندلس حيث أنشئت مدينة طلمكنة الجامعية قرب مدريد(٣٢).

ومما تجدر الإشارة إليه أنه لم يكن بالضرورة أن تشتمل المدرسة على مساكن لجميع الطلبة المقررين، بمعنى أنه ليس هناك علاقة عددية بين عدد الطلبة المقررين بها وبين ما تشتمل عليه من وحدات سكنية. ولم يكن كل الطلبة يسكنون في المدرسة، فمنهم من كان يسكن بها ومنهم من كان يسكن خارجها، وقد كان لشروط الواقف دورها في تحديد العدد الذي يسكن بالداخل أو بالخارج، ففي وثيقة السلطان حسن ما يشير إلى أن نصف الطلبة كانوا يسكنون بمدرسته، والنصف الآخر كان يتردد عليها(٣٣).

وقد كانت إقامة الطلاب في المدارس يساعد على عمارتها بالعبادات والتعلم طوال الأوقات، ولعل هذه الظاهرة هي التي استرعت انتباه ابن ظهيرة — أحد علماء

---

(٣١)محمد عبد الستار عثمان، *نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة*، مرجع سابق، ص١٣٧.

(٣٢)محمود الحاج قاسم محمد، *الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به*، مرجع سابق، ص ١٢٩.

(٣٣)محمد عبد الستار عثمان، *نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة*، مرجع سابق، ص١٣٧.

القرن التاسع للهجرة – فقال عنها في مصر والقاهرة "وغالب مدارسها ولله الحمد معمورة بعبادة الله تعالى من إقامة الصلوات والأذكار وقراءة القرآن والحديث والاشتغال بالعلوم الشرعية وغيرها آناء الليل وأطراف النهار"(٣٤).

(٦,٢) مؤسسات الرعاية الاجتماعية

لم يتوقف دور الوقف عند المساهمة في ازدهار المدينة الإسلامية، وازدهار عمرانها بالمباني والمنشآت المتنوعة، سواء المنشآت الموقوفة، ذات الوظيفة المقصودة من الوقف مثل المساجد والمدارس والبيمارستان وغيرها، أو تلك التي كانت توقف على المؤسسات الموقوفة، مثل الوكالات والحمامات وغيرها، بل تعدى الوقف هذا الدور إلى نوع آخر من المؤسسات في المدينة الإسلامية، انطلاقاً من الهدف الاجتماعي للوقف، وهي المؤسسات الاجتماعية التي كانت تقام من أجل تقديم الرعاية الاجتماعية سواء لغير القادرين من الفقراء أو العاجزين والمسنين.

ولم يتوقف الوقف عند الرعاية الإنسانية، بل امتدت مظلة الأوقاف لتشمل الحيوانات أيضاً، حيث سجل الوقف الإسلامي سابقة لم يكن لها مثيل في المجتمعات التي ظهر فيها الوقف سواء التي سبقت الإسلام أو التي كانت معاصرة له، من حيث اهتمام الوقف بالحيوانات، فقد وجدت المؤسسات التي أوقفت من أجل رعاية الحيوانات(٣٥).

---

(٣٤)محمد محمد أمين، *الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية*، مرجع سابق، ص٢٥٤.

(٣٥)مصطفى السباعي، *من روائع حضارتنا*، مرجع سابق.

(٦,٢,١) التكايا

أنشئت التكية بدلاً من الخانقاة في العهد العثماني، وهي تختلف من ناحية المسقط وتجميع المكونات ونوع العناصر اختلافاً جذرياً عن الخانقاة. فالتكية مسقطها عبارة عن حوش به حديقة وفسقية، ويحيط بالحوش من الجهات الأربع ممر مسقوف، بقباب كروية صغيرة، يفتح على الصحن بعقود محمولة على أعمدة، وينتظم حول الممر غرف الدراويش المعقودة بالقبواب الدائرية ومسجد صغير، ويلحق بالتكية سبيل. وتوضع دورات المياه في منسوب منخفض تحت منسوب المبنى. وقد جرت العادة على دفن الدراويش فيها بحوش ملحق بالمبنى[٣٦].

وقد اختصت التكايا في الغالب برعاية من لا عائل لهم، والذين لا يقدرون على الكسب من العجزة وكبار السن، والأرامل من النساء اللاتي لا يستطعن الكسب، إلى جانب الغرباء والمسافرين الذين لا يجدون مأوى لهم في البلاد التي يمرون بها[٣٧].

وكان يقدم في التكية وجبات مجانية منتظمة (رغيف من الخبز وصحن من الشوربة مع قطعة من اللحم) مرتين في اليوم، وكانت تقام في المدن، سواء للمحتاجين فيها أو الوافدين عليها. ومع توسع الدولة العثمانية فقد انتشرت التكايا في مختلف البقاع، والتي كانت من الإسهامات التي نشرها العثمانيون في المناطق الجديدة التي دخلت في إطار دولتهم. ويجدر القول بأن السلطان سليم الأول الذي فتح بلاد الشام كان أول من أنشأ خلال إقامته في دمشق (١٥١٧- ١٥١٨م) تكية بقيت تقدم خدماتها ووجباتها المجانية طيلة الحكم العثماني. وبعد ربع قرن، أي في سنة ١٥٥٤م،

---

(٣٦)صالح لمعي مصطفى، *التراث المعماري الإسلامي في مصر*، مرجع سابق، ص ص ٢٦-٢٧.

(٣٧)محمد بن أحمد الصالح، *الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع*، مرجع سابق، ص ١٩٦.

أنشأ السلطان سليمان القانوني التكية الثانية إلى الغرب من دمشق (المتحف الحربي الآن)، وهي التي بقيت تقوم بدورها طيلة الحكم العثماني. وإذا أخذنا بعين الاعتبار هاتين المنشأتين اللتين كانتا تقدمان آلاف الوجبات يومياً في مكان مناسب، يحفظ كرامة المحتاجين في مدينة كان لا يتجاوز عدد سكانها المائة ألف، لأدركنا مدى أهمية مثل هذه المنشأة في الحياة الاجتماعية[٣٨]، في المدينة الإسلامية في عصورها المزدهرة بفعل الوقف.

وقد كثرت التكايا في مختلف المدن الإسلامية، ومن التكايا ما كان مخصصاً لإسكان طلبة العلم، مثل تكية محمد بك أبو الدهب، وتكية الكلشني بالقاهرة، وكانتا مخصصتين لإسكان بعض طلبة العلم الغرباء الذين يدرسون بالأزهر الشريف. ومن التكايا ما كان مخصصاً لإقامة قاصدي الحج، ومن أشهر الأمثلة على ذلك تكيتا مكة المكرمة والمدينة المنورة، اللتان أنشأهما محمد علي وأوقفهما، وأوقف عليهما قريتين كاملتين بمصر بلغت مساحتهما ٢٨٧٧ فداناً ليصرف ريعها على هاتين التكيتين[٣٩]. كما كان من التكايا ما هو مخصص لإسكان الصوفية، ففي القاهرة كانت تكية القصر العيني، وجاء عنها في الجبرتي "أن هذه التكية كانت تعرف بتكية البكتاشية لأنها كانت موقوفة على طائفة من الأعجام المعروفين بالبكتاشية، وكان فيها قبتان مفروشتان بالرخام بإحداهما سبيل، وبها مساكن علوية لسكنى الصوفية"[٤٠].

كما بنى خسرو بك في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي في سراييفو تكية كانت تقدم الوجبات المجانية[٤١].

---

(٣٨)محمد الأرناؤوط، *الوقف في الدولة العثمانية قراءة معاصرة*، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٣٩)محمد بن أحمد الصالح، *الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع*، مرجع سابق، ص ص ١٩٦-١٩٧.

(٤٠)علي باشا مبارك، *الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة*، ج٦ ، مرجع سابق، ص ص ١٦٢-١٦٣.

(٤١)محمد الأرناؤوط، *وقفية مدرسة الغازي خسرو بك في سراييفو*، مرجع سابق، ص ص ١١١-١١٢.

(٦,٢,٢) الأربطة

تنوعت وظيفة الرباط[٤٢] تنوعاً شديداً، ومن خلال البحث وجدنا اختلافاً في هذه الوظيفة من بلد لأخرى، ومن حقبة زمنية لأخرى؛ مما أوجد صعوبة لدينا لتصنيف الربط تحت نوع محدد من المباني ذات الوظيفة العسكرية أو التعليمية أو الدينية أو الاجتماعية. وأخيراً رأينا وضعه ضمن مؤسسات الرعاية الاجتماعية لغالبية هذه الوظيفة على الأربطة بعد استقرار الحالة السياسية للدولة الإسلامية.

وقد كان الرباط، في بادئ الأمر، هو المكان الذي يأوي إليه الجند ويقيمون فيه لحراسة ثغور البلاد الإسلامية من الأعداء. ولم تقتصر المرابطة على المجاهدين، بل شملت العلماء والفقهاء والأطباء وغيرهم. وبمرور الزمن ومع إقبال الناس على المرابطة، أضافت تلك الربط إلى وظيفتها العسكرية، وظيفة التدريس والتأليف من قبل العلماء والفقهاء والمرابطين فيها. ونتيجة لاهتمام المسلمين بالربط فقد كثرت الأوقاف عليها، وشهدت ازدهاراً واسعاً خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين. وحين استقرت أحوال البلاد الإسلامية، تغيرت وظيفة الربط الأساسية، لتكون دور علم وتعليم. كما أصبحت بيوتاً للتقشف والعبادة، وكان المرابطون يعملون ويعيشون فيها ويقدمون خدماتهم مجاناً، وبالمقابل تنفق الدولة عليهم كمجموعة، ويتبرع المحسنون لهم بالأراضي والإقطاعات، ويحبسون لهم الأوقاف[٤٣][٤٤]. كما تحول

---

(٤٢) الرباط: تجمع على الرُبط، والأربطة، والرباطات.

(٤٣) محمد بن أحمد الصالح، *الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع*، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٤٤) محمد بن عبد الرحمن الحصين، *دور الوقف في تأسيس المدارس والأربطة والمحافظة عليها في المدينة المنورة*، مرجع سابق، ص ٦١.

بعضها إلى أماكن لإقامة الزوار والحجاج، وإلى ملاجئ للأيتام والمعوزين[٤٥]، وإلى أماكن لإقامة المتصوفة، يقول المقريزي في تعريف الرباط "بيت الصوفية ومنزلهم، ولكل قوم دار والرباط دارهم وقد شابهوا أهل الصفة في ذلك، فالقوم في الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد، وعزم واحد وأحوال متناسبة"[٤٦].

ومما يدل على تنوع وظيفة الرباط، ما جاء في نص وثيقة وقف الناصر محمد بن قلاوون، من أن الرباط يكون لسكنى الصوفية أو غيرهم، حيث نصت الوثيقة على أن "الرباط بناحية سماسم المشتمل على ستين بيتاً، وجعله رباطاً مأوى الفقراء الواردين إليه، والرباطان الباقيان المشتمل كل منهما على أحد وعشرين بيتاً فإنه جعل ذلك رباطين برسم سكنى الفقراء الصوفية المقيمين بهذا المكان المذكور على الدوام والاستمرار"، وواضح من هذا النص أن كلمة الرباط أطلقت على المجموعات السكنية الثلاث بهذه المنطقة لأنها جميعاً تستعمل للمرابطة بمعنى الإقامة، ولكن اختلفت نوعية المقيمين بالرباط الأول عن المقيمين بالرباطين الآخرين، فالأول للعابرين ووصفهم بالفقراء دون أن يحدد ما إذا كانوا صوفية أم لا"[٤٧].

ولم يكن الرجال وحدهم هم المقبلون على إنشاء الربط، فقد اهتمت الكثيرات من النساء بإنشاء هذا النوع من المباني، حيث وجد في العصر المملوكي أربطة للرجال وأربطة للسيدات تلتحق بها السيدات، وكانت أربطة النساء أقرب ما يكون من

---

(٤٥)عبد الكريم إبراهيم، *الأوقاف الإسلامية في فلسطين (المحددات العامة والأصول التاريخية)*، مرجع سابق، ص ٢١١.

(٤٦)محمد عبد الستار عثمان، *نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة*، مرجع سابق، ص ص ١٨٢-١٨٣.

(٤٧) المرجع السابق، ص ص ١٨٣-١٨٤.

مؤسسات الرعاية الاجتماعية في العصر الحالي، خاصة وأن الملتحقات بها عادة يكن من الأرامل وممن أقعدهن العوز والحاجة[٤٨].

ويعد رباط سوسة الذي أنشأه الأغالبة عام ٢٠٦هـ، في تونس من أشهر الأربطة، (الشكل رقم ٦,٤)، ويتكون من ٣٣ غرفة في الدور الأرضي يتراوح عرضها ما بين ٢,١٨ و ٢,٩٠ متر، وتفتح على فناء مستطيل الشكل يحيط به رواق من جميع الجهات ويكون مزدوجاً في الضلع الجنوبي، كما يحيط بالغرف سور مربع مدعم بأبراج أسطوانية في زواياه ومنتصف أضلاعه، ويقع مدخل الرباط الوحيد في منتصف الضلع الجنوبي بارزاً عن الحائط، وتقع منارته الأسطوانية في الركن الجنوبي الشرقي باتجاه القبلة، وترتكز على قاعدة مربعة[٤٩].

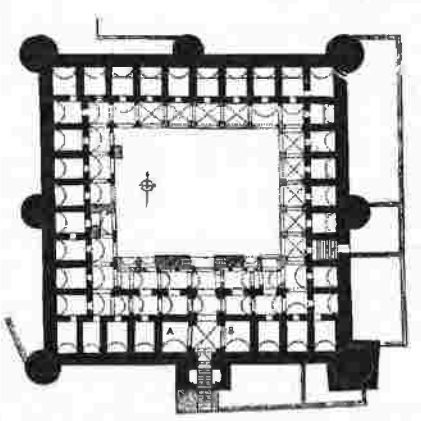

الشكل رقم (٦,٤). رباط سوسة بتونس[٥٠].

---

(٤٨)محمد عبد الستار عثمان، *نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة*، مرجع سابق، ص ١٨٧.

(٤٩)محمد بن عبد الرحمن الحصين، *دور الوقف في تأسيس المدارس والأربطة والمحافظة عليها في المدينة المنورة*، مرجع سابق، ص ص ٦١-٦٢.

(٥٠)صالح لمعي مصطفى، *التراث المعماري الإسلامي في مصر*، مرجع سابق.

وكانت الأربطة في مكة المكرمة كثيرة، منها رباط ربيع، يقول عنه ابن بطوطة: "وهو من أحسن الرباطات بمكة، بداخلها بئر لا يماثلها بئر بمكة، وسكانه الصالحون. وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط .. وأهل الطائف يأتونه بالفواكه"[٥١]. ومنها رباط السدرة وكان موقوفاً في سنة ٤٠٠هـ. ومنها رباط المراغي إلى جانبه ويعرف بالكيلاني وتاريخ وقفه سنة ٥٧٥هـ. ومنها رباط الأمير إقبال الشرابي المستنصري العباسي تحت منارة باب بني شيبة وتاريخ عمارته سنة ٦٤١هـ. ومنها رباط الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة، وهو الذي أنشأ عمارته، ووقفه سنة ٨٠٣هـ، وله عليه أوقاف بمكة ومنى والوادي. ومنها رباط بأول زقاق أجياد الصغير قبالة باب المسجد الحرام، أمر بإنشائه وزير مصر تقي الدين عبد الوهاب بن أبي شاكر، ومات قبل تمام عمارته، فأمر الأمير فخر الدين بن أبي الفرج باستكمال عمارته، فعمّر من ذلك جانب كبير، ومات هو الآخر قبل تمام عمارته سنة ٨٢١هـ، والفقراء به ساكنون. ومنها رباط السلطان شاه شجاع، صاحب بلاد فارس، وقف سنة ٧٧١هـ، وينسب للشيخ غياث الدين الأبرهوقي لتوليه لأمره وعمارته[٥٢].

ومن أشهر الأربطة في مصر؛ رباط الحجازية، وهو الذي أنشأته السيدة فوز جارية علي بن أحمد الجرجرائي الوزير بجوار مسجدها في القاهرة عام ٤١٥هـ، وأوقفته على أم الخير الحجازية، والتي كانت واعظة زمانها، كما كانت تعتني بتثقيف المقيمات بهذا الرباط[٥٣]. كما كان هناك رباط البغدادية، وهو الذي قال عنه المقريزي:

---

(٥١) ابن بطوطة، *تحفة النظار في غرائب الأمصار*، مرجع سابق، ص١٧٢.

(٥٢)تقي الدين أبو الطيب أحمد بن علي الحسيني الفاسي، *الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة*، حقيق: مصطفى محمد حسين، ط١، مرجع سابق، ص ص ١٢٢- ١٢٧.

(٥٣)محمد بن أحمد الصالح، *الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع*، مرجع سابق، ص ص ١٧٧- ١٧٨.

"هذا الرباط بداخل الدرب الأصفر تجاه خانقاة بيبرس، وهذا الرباط بنته الست الجليلة تذكار باي خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس في سنة أربع وثمانين وستمائة للشيخة الصالحة زينب المعروفة ببنت البغدادية فأنزلتها به ومعها النساء الخيرات، كما أمرت بالصرف عليهن"(٥٤).

وكثرت الأربطة في بلاد الشام، وكان منها الرباط البياني، والرباط التكريتي، ورباط صفية، ورباط زهرة، ورباط طمان، ورباط جاروخ، ورباط الغرس خليل، ورباط المهراني، ورباط البخاري، ورباط السفلاطوني، ورباط الفلكي، ورباط بنت السلار، ورباط عذراء خاتون، ورباط بدر الدين عمر، ورباط الحبشية، ورباط أسد الدين شيركوه، ورباط القصاعين، ورباط بنت الدفين، ورباط بنت عز الدين، والرباط الدواداري، والرباط الفقاعي(٥٥).

كما تنوعت الأربطة في المدينة المنورة من حيث المواقع والحجم (عدد الغرف)، وقد احتوى سجل خاص ضمن سجلات محكمة المدينة المنورة على ذكر ٨٢ رباطاً مع ذكر عدد غرفها وأسماء من سكنوها في الفترة من ١٢٠٥- ١٢٢٩هـ، وكانت سعة هذه الأربطة تتفاوت من ثلاث غرف إلى ٦٠ غرفة. ومن هذه الأربطة على سبيل المثال؛ رباط عزت باشا، أنشأه عزت باشا ابن هلوب باشا عام ١٣٢١هـ، على الأرض التي اشتراها من عبد الله فكري أفندي بمحلة المنشية، ويعد هذا الرباط من أكبر أربطة المدينة مساحة حيث تبلغ مساحة أرضه ما يقارب من ٥٢٠٠م٢، ويشتمل الرباط على ٤٠ غرفة ومسجد به دار لتعليم الصبيان ومطبخ ومغسل، وقد اشترط الواقف

---

(٥٤)علي باشا مبارك، *الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة*، ج٦ ، مرجع سابق، ص ٣٠.

(٥٥)عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، *الدارس في تاريخ المدارس*، ج٢، مرجع سابق، ص ص ١٥٠-١٥٢.

تخصيص ست حجرات مستشفى منها ثلاثة لعشرة من مرضى المهاجرين من المسلمين وحجرة لسكنى طبيب وأجزأجي (ممرض أو صيدلي) وحجرة لخدمة المرضى والسادسة مخزن للعقاقير الطبية، كما تخصص الحجرات الباقية لسكنى المهاجرين لمن ليس له صنعة ولا حرفة من صلحاء مهاجري أهل الهند، والصين، وما وراء النهر، والأتراك، وأهل الشام وأن يرجح في السكن العالم وطالبوا العلم. ومنها رباط العجم وأنشأه جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني، ووقفه على فقراء العجم، وجعل له فيه مشهداً دفن فيه عام ٥٥٥هـ، واحتوى الرباط على جزء من دار عثمان بن عفان ﷺ مقابل باب جبريل عليه السلام. ومنها رباط ياقوت المارداني وأنشأه ياقوت المظفر المنصور المارداني عام ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م، أثناء حكم السلطان محمد بن قلاوون بحارة الأغوات في آخر الطريق الموصل إلى البقيع، ووقف الرباط على الفقراء والمساكين والغرباء الرجال دون النساء، ويتصف الرباط بواجهة صغيرة تطل على الشارع، وبها المدخل الذي ينعطف مؤدياً إلى فناء مستطيل تحيط به الغرف ويتكون من دورين. ومنها رباط مظهر وأنشأه محمد مظهر الفاروقي النقشبندي عام ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م، ويطلق عليه مدرسة وتكية الشيخ مظهر، والظاهر أنه رباط خصص للأحمديين، ويقع الرباط في نهاية زقاق المواليد، ويتكون من ثلاثة طوابق يضم كل منها ٣٠ غرفة ودورات المياه، ومكتبة تقع في الطابق الثاني. ومنها رباط إسماعيل بن جعفر، ويقع بجوار مشهد إسماعيل بن جعفر الصادق غرب البقيع ملاصقاً للسور من الداخل ويسمى برباط المشهد ورباط كرباجة، وسكن فيه العياشي بعد وصوله المدينة ووصفه بأنه أفسح الأمكنة، وبه أماكن للوضوء وبئران[٥٦].

---

(٥٦) الحصين، محمد بن عبد الرحمن، *دور الوقف في تأسيس المدارس والأربطة والمحافظة عليها في المدينة المنورة*، مرجع سابق، ص ص ٨٨، ٩٤- ٩٧

(٦,٢,٣) ملاجئ الأيتام

الملجأ، باعتباره مؤسسة للرعاية الاجتماعية، هو شكل متطور لمبنى الرباط[٥٧]. وتوضح حجج الأوقاف الخاصة ببعض الملاجئ الكثير من الشروط التي وضعها الواقف لتنظيم أعمال الرعاية لنزلاء الملجأ، سواء أكان اليتامى من الرجال أم النساء، بما في ذلك مقادير الأطعمة التي تقدم لهم، وما يحصل عليه كل نزيل من إعانة مالية شهرياً، بجانب ملابس للصيف وأخرى للشتاء[٥٨].

ومن النماذج الحديثة في بيروت بلبنان "الميتم الإسلامي"، وقد تم تأسيسه عام ١٣٤١هـ/١٩٢٢م، وبدأ بإسداء العون والمؤازرة للأرامل وأطفالهن في مبنى مستأجر في محلة برج أبي حيدر. وبخروج العثمانيين تم وضع اليتامى المسلمين في محلة برج أبي حيدر المشرفة على بيروت القديمة، وسمي المبنى "ملجأ الأيتام الإسلامي". إلا أنه في سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، قامت فرنسا إبان الاحتلال بهدم هذا المبنى، فهب الأهالي لجمع التبرعات والأوقاف لبناء مبنى جديد، وبالفعل تم ذلك وافتتح المبنى الجديد عام ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م. وقام أهل الخير بالوقف على هذا الملجأ، ومن أهم الوقفيات في هذا الصدد، وقفية المرحومة فاطمة الشخيبي التي أوقفتها على الأيتام الموجودين في هذا الملجأ، على أن يكون ريعها في حال انقراض الملجأ إلى الأيتام الموجودين تحت سلطة "جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت"، ثم من بعد ذلك لتعليم أولاد المسلمين الفقراء في بيروت، وبلغت قيمة قسم من وقفيتها سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٣م، ألف ليرة سورية[٥٩].

---

(٥٧) الصالح، محمد بن أحمد بن صالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٩٥

(٥٨) المرجع السابق، ص ١٩٦.

(٥٩) حنان إبراهيم قرقوتي، "تطور تنظيم الوقف في لبنان (نموذج رعاية اليتامى في مدينة بيروت)"، *مجلة أوقاف*، العدد١٢، السنة السابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٧م، ص ص ١١٣-١١٥.

(٦,٢,٤) دور المسنين

كانت هذه الدور تقام بغرض إيواء كبار السن الذين لا عائل لهم. ومن النماذج على ذلك أن إسماعيل رفعت أوقف عام ١٨٦٧م لصالح ملجأ باب الخلق بالقاهرة الذي كان مخصصاً "لإنزال وإسكان عشرين امرأة من النساء والعجائز الفقيرات المسلمات والعاجزات عن الكسب الخاليات من الأزواج"[٦٠].

(٦,٢,٥) مباني المعاقين

وقفت أموال لإمداد المقعدين والعميان بمن يقودهم ويخدمهم. وأول من جمعهم في دور خاصة للعناية بأمرهم هو الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦- ٩٦هـ)، وأعطى لكل أعمى قائداً يعينه في تنقله ويشرف على العناية بأمره وخصص لكل مقعد خادماً يكون في خدمته[٦١]. وفي ذلك يقول أحد الباحثين: "ونشأت أوقاف .. للمقعدين والعميان يتوفر لهم فيها السكن والغذاء والكساء". روى الرحالان الفرنسيان الأخوان (جان وجيروم تارو) في رحلتهما إلى مراكش أن فيها ملجأ لا يوجد مثله في الدنيا بأسرها وهو بناء يكاد يكون بلدة وله ساحة لا يكاد الطرف يأتي على آخرها وفي هذا الملجأ ستة آلاف أعمى ينامون ويأكلون ويشربون ويقرءون، ولهم أنظمة وقوانين وهيئة وإدارة[٦٢].

(٦,٢,٦) مؤسسات الحليب والسكر

كانت هناك مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر، وقد كان من مبرات صلاح الدين أنه جعل في أحد أبواب القلعة في دمشق ميزاباً يسيل منه الحليب، وميزاباً

---

(٦٠)ريهام أحمد خفاجي، *أوقاف النساء: نماذج لمشاركة المرأة في النهضة الحضارية، دراسة للحالة المصرية في النصف الأول من القرن العشرين*، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٦١)محمود الحاج قاسم محمد، *الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به*، مرجع سابق، ص ١١٦.

(٦٢)عبد الله بن سليمان الباحوث، *الوقف والتنمية الاقتصادية*، مرجع سابق، ص ١٥٣.

آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي إليه الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن ما يحتاجونه من الحليب والسكر[٦٣].

(٦,٢,٧) مؤسسات الزبادي

تعد مؤسسات الزبادي من أطرف المؤسسات الخيرية التي وجدت في المدينة الإسلامية، حيث إنه كان يحدث كسر للزبادي أثناء حمل الأولاد لها وهم في طريقهم إلى البيت، فيأتون إلى هذه المؤسسة ليأخذوا زبادي جديدة بدلاً من المكسورة[٦٤]. ولا شك فيما كان لهذه النوعية من المؤسسات الاجتماعية من الدور في رفع الحرج عن الأولاد وعن الخدم الذين يكسرون الزبادي.

(٦,٢,٨) خزانات الكسوة

ظهر هذا النوع من الأوقاف لدعم الفقراء بتوفير الكسوة في فصلي الشتاء والصيف، ومن تلك الخزانات كانت الخزانة التي أنشأها المعز لدين الله الفاطمي في قصره بالقاهرة. وقد قال عنها ابن أبي طي "وعمل يعني المعز لدين الله داراً وسماها دار الكسوة كان يفصل فيها من جميع أنواع الثياب والبز ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف وكانت لأولاد الناس ونسائهم كذلك، وجعل ذلك رسماً يتوارثونه في الأعقاب وكتب بذلك كتباً وسمى هذا الموضع خزانة الكسوة"[٦٥].

(٦,٢,٩) مباني السجون

لأن مؤسسات السجن هي مؤسسات رعاية اجتماعية في المقام الأول، تهدف إلى تهذيب السلوك وتقويم الاعوجاج في أفعال المساجين، فقد التفت الوقف إلى هذه

---

(٦٣) مصطفى السباعي، *من روائع حضارتنا*، مرجع سابق، ص ١٢٧.

(٦٤) المرجع السابق، ص ١٢٧.

(٦٥) المقريزي، *الخطط المقريزية*، المجلد الثاني (١)، لبنان: دار إحياء العلوم، ١٩٥٩م، ص٢٥٤.

المؤسسات، فكانت هناك المؤسسات الوقفية لتحسين أحوال المساجين، ورفع مستواهم وإمدادهم بالغذاء اللازم[٦٦]، فقد كان في تونس، على سبيل المثال، حبس "على المسجونين بحبس الخليفة داخل القصبة من تونس. وحبست فاطمة عثمانة على سجناء القصبة أموالاً تصرف على طعامهم في رمضان"[٦٧].

ولم يتوقف دور الوقف على توفير الطعام للمساجين فقط، بل امتد كذلك إلى الاهتمام بتوفير الرعاية الصحية للمسجونين من المرضى. وقد لاحظ، علي بن عيسى الجراح، وزير الخليفة المقتدر بالله العباسي في القرن الثالث الهجري، ضرورة ذلك فكتب إلى سنان بن ثابت، رئيس أطباء بغداد حينئذ، فقال: "فكرت – مد الله في عمرك – في أمر من في الحبوس وأنهم لا يخلون – مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم – أن تنالهم الأمراض وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونهم من الأطباء فيما يعرض لهم، فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم وتحمل إليهم الأدوية والأشربة ويطوفون في سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى"[٦٨].

(٦,٢,١٠) مؤسسات الرعاية الاجتماعية للحيوان

نجد في الأوقاف القديمة أوقافاً لرعي الحيوانات المسنة العاجزة. ومنها أرض المرج الأخضر في دمشق، فإنها وقفت للخيول العاجزة التي يأبى أصحابها الإنفاق عليها لعدم الانتفاع بها، فترعى في هذه الأرض حتى تموت. ومن أوقاف دمشق وقف للقطط تأكل منه وترعى وتنام، حتى لقد كان يجتمع في دارها المخصصة لها مئات القطط الفارهة السمينة التي يقدم لها الطعام كل يوم وهي مقيمة لا تتحرك إلا للرياضة والنزهة[٦٩].

---

(٦٦)محمد بن أحمد الصالح، *الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع*، مرجع سابق، ص ١٦٩.

(٦٧)أحمد قاسم، *الوقف في تونس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر*، مرجع سابق، ص ص ٤١-٤٢.

(٦٨)محمود الحاج قاسم محمد، *الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به*، مرجع سابق، ص ص ١١٢-١١٣.

(٦٩)مصطفى السباعي، *من روائع حضارتنا*، مرجع سابق، ص ١١٣.

كما كانت هناك أوقاف في المسجد الأموي تقدم الطعام للقطط، وقد ظهرت صورة هذا العمل في أعمال الفسيفساء بالجامع، حيث وجدت الصور التي تعيد للأذهان تقديم الطعام للقطط عن طريق الوقف[٧٠].

(٦,٣) المنشآت التجارية

تمثلت المباني التجارية التي ساهم الوقف في ازدهارها وزيادة عمرانها في الوكالات، والأسواق، والقيساريات، والمحلات التجارية.

وكانت المباني التجارية تقام من أجل أغراض الوقف وليس الموقوفين، حيث يقوم الواقف بوقف الخان أو الوكالة من أجل أن يصرف ريعها على العين الموقوفة سواء كانت مسجداً أو مدرسة أو مكتبة أو بيمارستاناً وغيرها، لذا فإن ازدهار هذا النوع من عمران المدينة الإسلامية، قد لعب فيه الوقف دوراً غير مباشر.

لقد ساهمت المنشآت التجارية الموقوفة في جذب التجار، وتسهيل حركتهم بين المدن الإسلامية المختلفة، وكذلك بينها وبين مختلف البقاع العالمية، كما ساهمت المباني السكنية التي كان يسكنها التجار مثل الوكالات، والخانات، والفنادق في تطور حركة التجارة عموماً في المدينة الإسلامية.

(٦,٣,١) الوكالات

وجدت الوكالات داخل المدينة بالقرب من المنطقة التجارية، وكانت مخصصة لإقامة التجار القادمين من البلاد المجاورة[٧١]. وبالطبع كانت الوكالة ذات وظائف متعددة، فقد شملت التجارة والسكن. ولأن السكن كان مخصصاً للتجار بمعنى أن وظيفة السكن كانت تابعة للوظيفة التجارية؛ فقد رأينا تصنيف الوكالات ضمن المباني التجارية التي لعب الوقف فيها دوراً كبيراً.

---

(٧٠) G.,Michell, *Architecture of the Islamic World*, its History and Social Meaning, (op. cit.), p. 45

(٧١) صالح لمعي مصطفى، *التراث المعماري الإسلامي في مصر*، مرجع سابق، ص ٧٣.

ويتكون مبنى الوكالة من طابق أرضي يشتمل على حوانيت مطلة على الشارع، وحواصل عبارة عن غرف معقودة بقبب دائرية تفتح هذه الحواصل على ممر مسقوف يفتح بدوره على الصحن بعقود محمولة على أكتاف ضخمة، ويلحق بالمبنى مسجد صغير، وفي بعض الأحيان سبيل. ويكون السكن في غرف منفصلة أو مساكن من عدة طوابق، كما هو الحال في أغلب وكالات العصر المملوكى الجركسي. ويقيم التاجر بالسكن حتى يبيع تجارته(٧٢).

ومن أشهر الوكالات بمدينة القاهرة كانت وكالة الغوري، وقد بنيت في الفترة من ٩٠٩- ٩١٠هـ/ ١٥٠٤- ١٥٠٥م، وتتكون من طابق أرضي به الحوانيت. ويتكون السكن من ثلاثة طوابق يتم الاتصال بينها عن طريق سلم داخلي يتغير موقعه بين كل طابق وآخر، كذلك يوجد فراغ رأسي يربط بين الأدوار الثلاثة، وتطل النوافذ على الصحن، وكلها مغطاة بالمشربيات من الخشب الخرط، الشكل رقم (٦,٥).

كما كانت بالقاهرة وكالة جمال الدين الذهبي، وهي مما أوقفه جمال الدين الذهبي من جملة أوقافه (الوكالة، ومطبخ السكر، والربع، والقاعة) للصرف من ريعها على السبيل وتعليم القراءة لأيتام المسلمين، وقراءة القرآن(٧٣).

الشكل رقم (٦,٥). الفناء الداخلي لوكالة الغوري بالقاهرة(٧٤).

---

(٧٢) المرجع السابق، ص ٢٦

(٧٣) محمد، رفعت موسى، الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية، مرجع سابق، ص ٩٩

(٧٤) http://www.islamonline.net/arabic/arts/2001/01/article1.shtml

وتتكون الوكالة من قسمين؛ قسم خاص بالتجارة وسكن التجار، وقسم ثان خاص بالسبيل والكتّاب. ولهما واجهتان رئيستان؛ الواجهة الجنوبية الشرقية أهمهما نظراً لوجود مدخل الوكالة بها، وتطل على شارع المقاصيص، والواجهة الثانية هي الواجهة الجنوبية الغربية وتشرف على حارة العدوية، أما الواجهتان الأخريان للوكالة فهما الواجهة الشمالية الشرقية وهي ملاصقة لعقار، والواجهة الشمالية الغربية وهي ملاصقة لوكالة عثمان كتخدا[٧٥].

(٦,٣,٢) الأسواق والحوانيت

كلمة سوق هي الكلمة المرادفة للكلمة الفارسية بازار، أما حانوت فتعني دكان. وكانت الأسواق تحتوي على حوانيت يتراوح عرض الحانوت بين اثنين وثلاثة أمتار. وقد كانت منطقة قصبة مدينة القاهرة (الشارع الأعظم وما يجاوره)، على سبيل المثال، بها حوالي اثنا عشر ألف حانوت وجدت في القرن الخامس عشر الميلادي. وكان من جملة الأسواق؛ سوق السلاح، وسوق الصنادقيين (حيث تباع الصناديق)، وسوق الكعكيين، وسوق الخراطين، وسوق العطارين، وسوق القزازين، ... إلخ[٧٦].

ذكر الإصطخري: "أن عمرو بن الليث الصفّال بنى في بزرنج (بلدة في إيران) سوق عمرو ووقفه على المسجد الجامع والبيمارستان والمسجد الحرام، وغلة هذا السوق في كل يوم نحو ألف درهم، وكانت أسواق مدينة بزرنج غاية في العمارة[٧٧].

وكان من جملة الأوقاف التي أوقفها عارف حكمت على مكتبته بالمدينة المنورة، كما جاء في نص وثيقة الوقف "... ووقفت أبنية ثمانية مع أبواب دكاكين ذات

---

(٧٥) المرجع السابق، ص ١١٨.

(٧٦)صالح لمعي مصطفى، *التراث المعماري الإسلامي في مصر*، مرجع سابق، ص ص ٧٤- ٧٥.

(٧٧)أحمد عيسى، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، مرجع سابق، ص ٢٦٨.

قبب ومنها واحد دكان للخضروات وواحد دكان القصاب، وواحد دكان البقالة وواحد دكان العطارة، وأربعة أخرى"[٧٨].

وقد كان من جملة أوقاف السلطان قلاوون على بيمارستان قلاوون مجموعة كبيرة من الحوانيت، ذكرت في وثيقة الوقف "وخان سرور والسقطيين وغير ذلك، يشتمل على حوانيت كل منها يغلق عليه زوج أبواب وبعضها بدراريب ولكل منها منابل دائرة يعلوها شرفة، في الحد القبلي منها سبعة عشر حانوتاً ومقعدان، وفي الحد البحري منها ستة حوانيت كل منها بصدره باب بغير باب عليه، اثنان منها بدائرهما رفوف، ويجاورهما ستة حوانيت أيضاً يغلق على كل منها زوج أبواب، وبالقيسارية المذكورة طريقان يتوصل من كل منهما إليها بغير باب عليهما، ومقعدان في الحد البحري، وفي الحد الشرقي ثلاثة حوانيت تعلوها شرفة ومنابل دائرة يغلق على كل منها زوج أبواب، وفي الحد الغربي تسع حوانيت كل منها يغلق عليه زوج أبواب وبه شرفة ومنبل دائر، وعدة الحوانيت التي بباطن القيسارية المذكورة اثنان وعشرين حانوتاً ..."[٧٩].

كما أوقف خسرو بك ثلاث وقفيات كبيرة تضمنت منشآت عديدة ومتنوعة، كان منها ٦٠ دكاناً، ومطحنة كبيرة بعشرة أحجار في قرية فيتا تشيشته و ١٥٠ خلية نحل في قلعة دوبور؛ وقد كان لهذه المنشآت دورها في تطور سراييفو وتحولها من بلدة أو قصبة إلى مدينة بالمفهوم العثماني، وكان ذلك في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي[٨٠].

---

(٧٨) يحيى محمود ساعاتي، *الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي*، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٧٩) الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ابن حبيب، تحقيق: محمد محمد أمين، *تذكرة التنبيه في أيام المنصور وبنيه*، ج١، مرجع سابق، ص ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٨٠) محمد الأرناؤوط، *وقفية مدرسة الغازي خسرو بك في سراييفو*، مرجع سابق، ص ص ١١٠- ١١٢.

(٦,٣,٣) القيساريات

اشتقت كلمة قيسارية من كلمة قيصري (سوق القيصر)، وتختلف القيسارية عن السوق، فهي عبارة عن مبنى به عدة ممرات مسقوفة توجد حول صحن كبير ويكون له عدة مداخل متقابلة. وتحتوي القيسارية على محلات للبيع ومخازن وورش. ويغلب في كثير منها وجود غرف سكنية في الطابق العلوي، وغالباً ما شغلها أصحاب المحلات بالطابق الأرضي[٨١]. وقد ذكر المقريزي أنه في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي كان بالقاهرة سبع وثلاثون قيسارية[٨٢].

(٦,٤) المنشآت الصناعية

لم يغفل الواقفون عن إجراء الأوقاف على المنشآت ذات النشاط الصناعي، باعتبار الصناعة من العناصر والمكونات المهمة في المدينة، وقد ساهمت الأوقاف في أن تكون الصناعة أحد العناصر المهمة في اقتصاد المدينة الإسلامية، لما حققه الوقف من خلال المنشآت الصناعية الموقوفة من ازدهار لبعض الحرف وتطورها.

(٦,٤,١) صناعة المعدات الحربية

كان هناك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله، يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجونه إليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب، وكان لها أثر كبير في صد غزوات الروم أيام العباسيين، وصد غزوات الغربيين في الحروب الصليبية عن بلاد الشام ومصر. كما كانت توقف بها الخيول والسيوف والنبال وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية وقيام مصانع كبيرة لها في

---

(٨١) صالح لمعي مصطفى، *التراث المعماري الإسلامي في مصر*، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٨٢) المرجع السابق، ص ٧٥.

البلاد الإسلامية، حتى كان الغربيون في الحروب الصليبية، يفدون إلى البلاد الإسلامية – أيام الهدنة – ليشتروا من السلاح، وكان العلماء يفتون بتحريم بيعه للأعداء[٨٣].

ولما ضعفت الخلافة الإسلامية توجه الواقفون بحس جديد نحو سد ثغرة القوة الحربية للخلافة، من خلال وقف الأوقاف على التعليم العسكري للدفاع عن حدود الخلافة والذود عن أقاليمها. ومن الوقفيات المهمة في هذا المجال وقفية الأميرة فاطمة ابنة إسماعيل، حيث إنها خصصت أربعين سهماً من ريع وقفيتها الهائلة – التي تعد إحدى أكبر الوقفيات في تاريخ مصر الحديثة – لدعم التعليم العسكري لصالح "أربعة تلاميذ من كل من المدرسة الحربية والمدرسة البحرية بدار الخلافة الإسلامية والسلطة العثمانية، منها اثنان على الأقل من الضباط أو من تلاميذ المدارس المتحصلين على الشهادات النهائية، ويكونون من المسلمين، يرسلون لتعليم صنع المدافع والأسلحة الحربية وفن البحرية من أحسن وأتقن وأمتن وأحدث طراز يصنع في الممالك الأجنبية سواء في أوربا أو أمريكا أو بلاد اليابان أو أي جهة من الجهات التي تفوق غيرها في إنفاق ذلك في أي عصر وأي زمن"[٨٤]. هذا بالإضافة إلى "ما يلزم للأربعة المذكورين من المصاريف المدرسية والمأكل والمشرب، وغير ذلك مما يحتاجه الواحد منهم من كتب وأدوات تعليم وأجر السفر في الذهاب والإياب والسكنى والكسوة التي تلزم، وغير ذلك مما هو لازم إعطاؤه على سبيل المصاريف الشخصية". ولم تقف الوقفية عند هذا الحد بل قدمت حوافز للطلاب للمضي قدماً في الهدف الذي كانت الأميرة ترمي إليه، والتيقن من إلمامهم بالعلوم التي أرسلوا لتعلمها، وذلك من خلال عقد امتحان لهم

---

(٨٣) السباعي، مصطفى، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٢٦.

(٨٤) ريهام أحمد خفاجي، *أوقاف النساء: نماذج لمشاركة المرأة في النهضة الحضارية، دراسة للحالة المصرية في النصف الأول من القرن العشرين*، المرجع السابق، ص ص ٢٨-٢٩.

بعد العودة إلى الوطن بديوان الحربية بدار الخلافة الإسلامية والسلطنة العثمانية "بمعرفة من لهم معرفة تامة بالعلوم والفنون التي تلقاها ذلك التلميذ ... ومتى ظهرت نتيجة الامتحان عن إحراز ذلك التلميذ للعلوم والفنون والصنايع التي تدل عليها الشهادة التي بيده يصرف للتلميذ الذي يظهر أنه أرقى من غيره في الامتحان وأحرز النمر العالية زيادة عن غيره مائة جنيه مصري عن كل سنة أقامها في المدارس الأجنبية التي تعلم بها تلك العلوم والفنون والصنايع، ويصرف لكل تلميذ والتلامذة التي تليه في درجة الامتحان خمسون جنيها عن كل سنة من سني الدراسة التي أقامها بالمدارس الأجنبية مدة التعليم المذكور، بحيث يكون صرف تلك المبالغ دفعة واحدة للتلامذة المذكورين"(٨٥).

وقد طرحت هذه الوقفية رؤية إستراتيجية متقدمة وناضجة للنهضة والتنمية تركز على عبور فجوة التخلف في المعرفة، تقوم هذه الرؤية على فكرة الاستثمار بعيد الأمد في المعرفة والعلوم الهادفة إلى تنمية قدرات وعناصر القوة وتوليدها ذاتياً، وليس إلى امتلاكها أو شرائها، بحيث تفنى، أو تبلى بعد فترة محدودة من الزمن. حيث ركزت الفكرة على تنمية المورد البشري المسلم من خلال إمداده بالمعارف، والعلوم الحديثة، بحيث يصير الفرد بؤرة تنموية منتجة تؤتي ثمارها باستمرار(٨٦).

هذا من جانب، ومن جانب آخر، حتى تكون الصناعة قائمة على العلم، فقد اهتمت الأميرة، وكما سبق توضيحه، بالوقف على تعليم فنون الصناعة الحربية، إلا أنها في نفس الوقت لم تغفل الوقف على الصناعة ذاتها تحقيقاً لهدف الحماية من الأعداء، فجاء في نص الوقفية "... فإذا اكتفت حكومة دار الخلافة بمن تعّلم تلك

---

(٨٥)هند مصطفى علي، *الأميرة فاطمة بنت إسماعيل: الوقف كمشروع إصلاحي*، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٨٦) المرجع السابق، ص ٩٨.

العلوم والفنون والصنائع على وجه ما ذكر يصرف الأربعون سهماً المقررة المذكورة لنظارتي الحربية والبحرية بالسوية، فما يخص نظارة الحربية من ذلك يصرف في ثمن أدوات لصناعة سفن حربية لدار الخلافة الإسلامية والسلطة العثمانية من أحسن وأتقن وأمتن وأحدث طرز وقتها مما يصنع في الممالك الأجنبية، وغير ذلك مما يلزم للبحرية أياً كان نوع ذلك اللازم وفي دفع مهايا وأجر الصناع، لذلك وغير ذلك حسبما يراه من يكون ناظراً للبحرية، وما يخص نظارة الحربية من ذلك يصرف في صناعة مدافع وبنادق وأسلحة وعربات نقل كل ذلك من أحسن وأتقن وأمتن وأحدث طرز وقتها مما يصنع في الممالك الأجنبية"[٨٧].

(٦,٤,٢) مطابخ السكر

كان مطبخ السكر يتكون من مجموعة من العناصر المعمارية وهي: دار القصب، بيت النوب، المدار أو الحجر، دولاب التخت، البهو، دار البقر، المسبك، بيت الصب، بيت المدفن[٨٨]. وقد قامت على مطابخ السكر الكثير من الصناعات خاصة صناعة الحلوى، وهي التي وصلت أنواعها في العصر المملوكي، مثلاً، إلى ثلاثة وخمسين نوعاً[٨٩].

وقد أوقف السلطان قايتباي بالقاهرة سنة ٨٧٩هـ/ ١٤٤٥م مطبخاً للسكر، وقد جاء في نص الوثيقة "المطبخ المعد لطبخ السكر وجميع المكان الخرج المجاور لذلك الكاين ذلك جميعه بالقاهرة المحروسة داخل درب يعرف بدرب شمس الدولة بجوار

---

(٨٧) المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٨٨) رفعت موسى محمد، *الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية*، مرجع سابق، ص ٩٧.

(٨٩) فهمي عبد العليم، *العمارة الإسلامية في عصر المماليك الجراكسة "عصر السلطان المؤيد شيخ"*، مرجع سابق، ص ٢٤.

بناء يعرف بابن البرقي المشتمل على بوابة ومخازن وقدور نحاس وحلل من النحاس"[٩٠].

وأوقف السلطان المؤيد شيخ، كما جاء في وثيقة أوقافه، مطبخاً للسكر بالأشمونيين بمدينة المنيا بمصر، وسط أرض زراعية كبيرة خصصت لزراعة قصب السكر، وكان المطبخ يحتوي على معصرة لعصر القصب وأماكن لحفظه واستخلاص السكر والعسل منه[٩١].

كما أوقف جمال الدين الذهبي مطبخاً للسكر بالقاهرة أيضاً، وقد جاء ذكر ذلك المطبخ في وثيقتين من وثائق أوقافه، ففي الوثيقة الأولى يحدد فيها موقعه فتذكر الوثيقة "... الحد ... الغربي ينتهي إلى الزقاق الغير نافذ الفاصل بين الأبنية المذكورة (يقصد الوكالة والسبيل والكتّاب) وبين مطبخ السكر ...". كما ورد ذكره في الوثيقة الثانية "... وقفه المفسر بالمستند المنوه بذكره وهو المطبخ المعد لطبخ السكر". وأيضاً ورد ذكره صراحة في وثيقة أخرى "مطبخ السكر المعروف بالمرحوم الخواجا جمال الدين الذهبي"[٩٢].

(٦,٥) المنشآت العسكرية

ساهم الوقف في تحمّل المسلم لمسئوليته في الدفاع عن وطنه والمساهمة في ذلك، فمنذ بداية الدولة الإسلامية ظهر وقف السلاح والخيل وغيرها من المنقولات التي تساعد في الحرب، فقد ثبت أن خالد بن الوليد ﷺ وقف سلاحه للغزو في سبيل الله،

---

(٩٠)رفعت موسى محمد، *الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية*، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٩١)فهمي عبد العليم، *العمارة الإسلامية في عصر المماليك الجراكسة "عصر السلطان المؤيد شيخ"*، مرجع سابق، ص ٢٤.

(٩٢)رفعت موسى محمد، *الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية*، مرجع سابق، ص ٩٧.

وامتدحه الرسول ﷺ على ذلك حين قال: "... وأما خالد: فإنكم تظلمون خالداً قد احتبس أدرعه وأعتاده في سبيل الله"(٩٣).

إن إسهامات الوقف في مجال الفتوحات الإسلامية كانت من السمات الأساسية والعناصر المحركة لامتداد المجتمع الإسلامي عبر أقاليم مختلفة. وفي هذا المجال أقرّ الفقهاء وقف الأسلحة والحيوانات المخصصة للحروب كالبغال والخيول، كما ساهم الوقف في عمارة الرباطات في الثغور للمجاهدين، وتأمين احتياجاتهم عن طريق وقف كل ما يلزم عليها من الأدوات المطلوبة كالسيوف والدروع وسائر أدوات الجهاد(٩٤)، وقد استدل الفقهاء على ذلك من حديث وقف خالد بن الوليد ﷺ الذي تقدم بيانه.

كما "كانت هناك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله. ويتبع ذلك وقف الخيول والسيوف والنبال وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله، ويتبع ذلك أوقاف خاصة يعطى ريعها لمن يريد الجهاد، وللجيش المحارب حين تعجز الدولة عن الإنفاق على كل أفراده، وبذلك كان سبيل الجهاد ميسراً لكل مناضل"(٩٥).

هذا بجانب إنشاء القلاع والحصون والأسوار التي تحمي المدن، وبناء الاستحكامات عليها، وتزويدها بالسلاح، والوقف على هذه الأماكن بعقارات لها ريع حتى يتم إصلاحها وترميمها والحفاظ عليها، وإنشاء وقفيات لصالح المرابطين بهذه القلاع، ولصالح الأسرى حتى يتم افتكاكهم بالفداء أو بالمبادلة، ورعاية أسرهم(٩٦). فقد أوقف صلاح الدين الأيوبي جميع الموارد المالية المتحصلة من مدينة بلبيس بمصر

---

(٩٣) صحيح البخاري ٤/٢١٣.

(٩٤)ياسر عبد الكريم الحوراني، *تجربة الوقف في إطار عالمي*، مرجع سابق، ص ١٧٩.

(٩٥)محمد بن أحمد الصالح، *الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع*، مرجع سابق، ص ١٦٩.

(٩٦)جمعة محمود الزريقي، "مستقبل المؤسسات الوقفية: في نطاق الثابت والمتغير لنظام الوقف الإسلامي"، *مجلة أوقاف*، العدد٧، السنة الرابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٤م، ص ٧٩.

لفك أسرى بعض سكان هذه المدينة الذين أسرهم الصليبيون في حملتهم على مصر سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م، وظل هذا الوقف يؤدي الغرض منه لمدة أربعين عاماً، حتى تم فك أسر جميع أسرى بلبيس. كما أوقف القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني دار التمر على فكاك الأسرى، وقد وصفها المقريزي نقلاً عن ابن المتوج فقال إنها تحتوي على "مخازن وأخصاص وشون، ومنازل علوية، وحوانيت، بمجازها وظاهرها، وهي اثني عشر حانوتاً، وخمسة مقاعد، وثمانية وخمسون مخزناً، وخمسة عشر خصاً، وست قاعات، وساحة، وستون شون، وخمسة وسبعون منزلاً، وخمسة مقاعد علوية"[٩٧].

وفي تونس، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، حبس الناس على الأسوار والأبراج والثكنات، وكثرت هذه الأوقاف بشكل خاص على تحصينات تونس وبنزرت والكاف والقيروان وسوسة والمنستير وصفاقس[٩٨]. فقد كانت الثغور المغربية في حاجة إلى تحصينات مستمرة بسبب تعرضها لهجمات الأسبان البرتغال والفرنسيين آنذاك، مما يجعل صد الكفار واتقاء شرهم ببناء السور يحتل أولوية، باعتباره سبيلاً إلى حفظ الدين، ناهيك عن حفظ الأنفس، والنسل، والأموال. وقد سئل في ذلك الفقيه القاضي أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحائك التطواني، عن تصحيح ما أفتى به غيره من جواز إصلاح أسوار البلد مما جمع من أحباس مكة، فأجاب: "إنه صحيح آت على ما به الفتوى، عملاً بما رواه ابن حبيب عن أصبغ عن

---

(٩٧)محمد محمد أمين، *الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية*، مرجع سابق، ص ص ٦٢- ٦٨.

(٩٨)أحمد قاسم، *الوقف في تونس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر*، مرجع سابق، ص ٤٧.

ابن القاسم. وبه قال ابن الماجشون وأصبغ. وإن ما أريد به وجه الله تعالى فلا بأس أن يصرف بعضه في بعض"[٩٩].

كما بنى الأمير يشبك بن مهدي الدوادار الكبير في طرف منطقة الإسكندرية بمصر برجاً أو قلعة صغيرة، في موقع مناسب يساعد بجانب قلعة قايتباي على ضرب أي محاولة لسفن العدو الحربية لدخول ميناء الإسكندرية الشرقي أو مهاجمة المدينة، وأوقف الأمير يشبك على هذا البرج، بجانب فقراء بجوار الجامع الأزهر، عام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م أراضي بالوجه البحري بمصر بناحية صندلة بالغربية، ومنية خلف بالمنوفية، وأراضي بالوجه القبلي بناحية ماكوسة الغربية والشرقية، ومنية بني خصيب بالأشمونين، وجعل من مصاريف وقفه ما يصرف على "أرباب الوظائف، والمقاتلة أجناد العدة التي ترصد للجهاد في سبيل الله تعالى، كل ذلك بالبرج المذكور أعلاه". كما أوقف الشيخ أبو عبد الله محمد الديروطي الشافعي برجاً بمجمع البحرين بالبر الغربي بدمياط، كما أوقف عليه بعض الأعيان للصرف من ريعها على عمارة البرج وعلى المجاهدين والمرابطين به، حيث جاء في نص وثيقة الوقف "وأن يكون بالبرج المذكور عشرة أنفس مرابطين به ... ومؤذن وخادم وبواب وخازن للسلاح ومن يحفظه ويصقله وغير ذلك من أرباب الوظائف، وأن يكون كل منهم يحسن الرمي بالنشاب والبندق والرصاص والمدافع ..."[١٠٠].

---

(٩٩)عبد الرحيم العلمي، *الاجتهادات الفقهية في نوازل الوقف عند المالكية*، مرجع سابق، ص ص ٥٠-٥١ .

(١٠٠)محمد محمد أمين، *الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨- ٩٢٣هـ/١٢٥٠- ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية*، مرجع سابق، ص ص ٢٢٦-٢٣٠.